

# لقد حكم الصفة على الموصوف

## لأستاذ عبد الحق فاضل

الارجع عندي أن هذا قد جاء من تأثير بعض النعوت الاعجمية (I) فان صبح ذلك ، فان بعض العرب وأخص منهم أهل العراق وشرقى الخليج العربى ، قد تأثروا بأخذى اللغات الآرية - السنسكريتية - وأخص منها الفارسية لجاوزتها لهم ، فقالوا : (طويل نجاد) بدلا من نجاد طويل ، و (رفيع عمام) بدلا من عمام رفيع .. على غرار تأثر بعض المتأدبين فى جيلنا هذا باللغات الغربية من قالوا (تدبر الامر بشكل او باخرا) ، وقالوا (التقىم أكثر فاكثر) ، بل قالوا (انه جيد جدا ليكون صادقا) !

وانما اتهمنا عرب العراق وشرقى الخليج العربى بالتأثير بالفارسية - وبذلك يرأتنا ضمنا عرب الشام من التأثر في هذا التئان باللاتينية - لأن اهل الشام لا يمكن أن يكونوا المسؤولين عن هذه البدعة ، لسيب بسيط هو أن الصفة في اللاتينية تل الموصوف كما في العربية وتجاريه افرادا وجمعها وتذكيرا وتائيا ، وأما في الفارسية فالقاعدة القديمة فيها - كما في أنها السنسكريتية - تقديم الصفة على الموصوف ، ان قول العرب : لذيد الطعم (بدل طعمته لذيد) .. وحسن الطالع (بدل طالعه حسن) .. وبعيد النظر (بدل نظره بعيد) .. وسي، الظن (بدل ظنه سى) .. ظاهرة لا أكاد أجد لها تعليلا الا التأثر بالفرنس فى

القاعدة فى المرببية هي أن الصفة تل الموصوف وتجاريه فى مختلف حالاته ولكننى لحظت باستغراب كبير أننا كثيرا ما نقدم الصفة على الموصوف دون أن نشعر ، مخالفين بذلك قواعد اللغة ومنطق الاشياء ، أيضا.

قالت العرب فى المثلوج مثلا : انه طويل النجاد رفيع العمام . والمقصود طبعا أن نجاده طويل وعماده رفيع ، ولكن الصفة هنا سبقت الموصوف واضيفت اليه ، بالإضافة تعنى الملكية او العائدية ، فقولك (طويل النجاد ورفيع العمام) يشبه من ناحية القواعد والاعراب قوله نجاد السيف وعماد البيت ، فاما أن السيف له نجاد والبيت له عماد فامر معقول . إلا أنه لا يمكن أن يكون النجاد له طويل (او شى طويل) لأن المقصود من هذا التعبير ان النجاد هو الطويل ، ولا يمكن أن يكون العماد له (شى)، رفيع لانه هو الشى، الرفيع ، واما المعقول ان يكون النجاد (له طول) والعماد (له رفعه) والواقع ان هذا الخلط أهون ما فى الامر . فسياتينا فى ثنايا البحث ما هو أدهى .

فمن أين جاء هذا النشاز المنطوى النحوى فى لغتنا ، فى حين أن القاعدة العامة ، التي تعد من خصائص العربية وآخواتها اللغات السامية ، تجرى على سنة تقديم الصفة وتأخير الموصوف خلافا للغات الآرية التي تجري القاعدة فيها على عكس ذلك ؟ .

(I) يراجع بحث للكاتب في (تأثير الاعجم في لغة العرب) .

تكتف بالاستقلال عنه بل حكمته هو بنوع من التعبية المقيدة فصارت تجره دائماً، أعني تكسر آخره بالإضافة هل أعود ثانية إلى التشبيه بالمرأة فاقول إن الصفة كالمرأة التي لا تسمع لزوجها حتى باتباعها إلى حيث تذهب، كما كان الموصوف يفعل بصفته حين كان يقدمها، بل تحكم عليه بملازمة البيت دائماً.

ثم هي - الصفة - بعد أن استقلت عن موصوفها اغراها صارت في بعض الأحيان تبعه ثانية وتذكيراً في مثل قولنا : فضليات السيدات وفضلاً، السادة ... ولكنها تتمرد عليه أحياناً أخرى فتبقي متشبطة بزم التذكير مهما كلف الأمر ، في مثل قوله : اتنا نقدر كريم عطفته وشريف خصاله ، ومثل قوله : قليل المعرفة كبير الشروء .. فقد ظلت الصفة هنا مذكورة مع موصوفاتها المؤنثات .

وهي أحياناً تتمسك بصيغة المفرد بعناد لا مبرر له حين يكون موصوفها مثنى أو جمعاً ، في مثل قوله : أسميل الخد ، حلو النظرات .

بل أنها تتجاهل الموصوف في جميع حالاته أحياناً ، من تذكير وثانية وفراود وثنية وجمع ، متشبطة في كل ذلك بمن لا علاقة لها به وهو مالك الموصوف إن كان له مالك ، من ذلك قوله : الوزير غزير العلم ، فالصفة هنا تقطع كل صلة لها بموصوفها العام منذ صارت خبراً للوزير (المبتدأ) .

ونحن نسميها صفة باعتبار ما كان ، أى أنها قبل تقديمها على الموصوف كانت صفة بالفعل ، حقيقة وحکماً ، أو نحوها وعقولياً ، أما عند تقديمها فيتغير اسمها هذا نحوياً وتصبح فاعلاً أو مفعولاً أو مجروراً وغير ذلك من حالات الأسماء في الاعراب .

وهي قد تعود فتصبح صفة أيضاً ، ولكن لا لموصوفها الحقيقي الذي تقدمت عليه ، بل لصاحبها كما كان شأنها حين صارت خبراً له في المثال السابق . وهذا من أغرب أطوارها إن لم يكن أغربها طراً ، ذلك لأن موصوفها الجديد قد يكون مغايراً لها ، أو مناقضاً كل

قولهم : خوش هزه ، ونيك بخت ، ودورين ، وبذكمان .. بنفس المعنى وبنفس ترتيب الألفاظ . (2)

ان انحصار هذه القاعدة الاعجمية في اللغة العربية التي تناقضها تماماً المناقضة في بعض القواعد الأساسية قد أحدث من الارتباك والاختلالات ما لم يخطر يوم اتعامها على بال ، لقد أصبحت هذه (التقليعة) الآرية وسط اللغة السامية أشبه بيبيضة البطة توضع تحت الدجاجة مع بيضها الدجاجي ، فتتجذب فرخ بطيء بين فرازير دجاج ، وإذا بهذا الفرج الناشر يحتساج إلى مداراة خاصة تقلب نظام البيئة في بعض الشؤون عقباً على رأس ، انه يسلك آنا سلوك البطة لانه بطيء ، وأوانة سلوك الدجاج لأنه يعيش في بيضة الدجاج ، وحينما سلوكاً فوضوياً لا اتزان فيه ، لا هو بطيء ولا دجاجي ، لأن حائل بين طبيعته البطية وبينه الدجاجية .

يلاحظ قبل كل شيء أن الصفة لا اعراب لها في الفارسية فلا يلحق آخرها تحريره أما في العربية التي لا تغنى أبداً من الاعراب فالقاعدة الأساسية أن تكون الصفة تابعة للموصوف اغراها وتذكيراً وثانية ، وافراداً وثنية وجمع ، وهي تبقى طيبة تابعة لسيدهما الموصوف ما دامت متأخرة عنه وفق القاعدة العربية ، لا تعكس غيرها من الكلمات ولا تخرج على منطق ، ولكنهم ما يكادون يقدمونها على الموصوف - تقليداً للإعاجم - حتى يجن جنونها فتخرج على كل ما يصطدم بها من قواعد مرعية وعرف مقبول .. هل أقول مثل المرأة حين قدموها في العصر الحاضر على الرجل تشبهها بالغربيين .. أم الامثل أنا أقول ذلك بعد أن كنت من المتحمسين في الدفاع عن (حقوق) المرأة ؟

ان أول ما فعلته عند تقديمها - أعني الصفة - هو إعلانها الاستقلال التام عن متبوعها الموصوف ، في الاعراب ، وصارت تتصرف تصرف سائر الأسماء المستقلة ، فهي مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة ، لا تبع لموصوفها ، ولكن وفقاً لظروفها الخاصة ، أعني وفتاً لوقعها من الكلام بصرف النظر عن الموصوف ، ولسم

(2) زيادة في الإيضاح : ( خاش = طيب ، مزة = الطعم ) ( نيك = حسن ، بخت = الطالع والحظ ) ( دور = بعيد ، بين = البصر ) ، بد = سيء ، كمان = الظن ) ويلاحظ أنه لا توجد في الفارسية أداة تعريف ، فكل اسم يعتبر معرفة ما لم تميزه علامة تنكير .

ت تكون لديهم سلطة تناقضها ، فلا يجدون فيها غضاضة ولا نشازا ، ومتى كبروا كان استعمالها عندهم هو العادة والسلبية ، ثم هم يخلقونها لذريهم تراثا من تعبير سائفة مستحبة ، يؤذى أذواقهم الخروج عليها ، ولو الى الأفضل الاتوم .

كذلك العرب الاولون ، لا بد ان أمثال تعبير طويل النجاد ، وشديد البأس ، وأهرب الشدقين ، وأحوص العينين ، وأقيس الثنائي ، وذلفاء الانف ، وقب البطور .. قد آذت أسماعهم أول الامر لاصطدامها بسلامتهم ، ولعلهم قد سخروا من المتكلمين بها ووصوهم بالرطانة والعجمة ثم استساغتها الاجيال اللاحقة بالرغم من لا عروبتها ولا منطقيتها .

ويرى الجاحظ أنه سمع غلاماً أعمجياً يقول (سند نعال) ي يريد (نعلاً سندية) كأنما يرى لـنا ملحة نادرة، دون أن يخطر له على دقة ملاحظته وفقامته في العربية أن العرب العرب، فعل ما هو أسوأ اذ يقول : قليل ما ، وقصير ذراع ، وطويل باع ، وباطل ثناء ، وثيم أعام ، واخوال .. وما إلى ذلك ، وإنما قلت إن فعل العرب أسوأ بسبب اللامنطقة واللانجوية التي مرت بـنا شواهد غير قليلة منها ، بالإضافة إلى لا عروبتها .. على حين أنها في اللغات الآرية أصيلة متسبة مع قواعد النحو ومنطق الأشياء .

ويلوح لي من تركيب قول الغلام الاعجمي (سند نعال) أن ترجمته الدقيقة هي (نعال السند) لا كما ترجمها الجاحظ (نعلاً سندية) أعني أنه تركيب إضافية لا نعت ، فلو قد أثر انه أمثل هذا الغلام الاعجمي بين العرب ، أو أكثر العرب المتأثرين بلغته الاصلية السنسكريتية لوجدنا أبناء قحطان وعدنان يقدمون المضاف اليه على المضاف أيضا ، ولو قد سرت عدوى ذلك فعمت العرب أجمعين كما عمتهم عدوى تقديم النعت على المعنوت ، لما وجد الجاحظ فيها ما يستحق التدوين او يلفت النظر .

وأكبر ظني أن آفة تقديم المضاف اليه أيضاً كانت قد أصابت بعض العرب ، ربما أكثر من مرة في أكثر من مكان ، ولكن عدواها لم تتمكن من الانتشار ولا البقاء ، لأنها بالرغم من عدم اصطدامها بالمنطق تحدث من اللبس ما لا يمكن احتمالها معه ، فعلمون أن الوسيلة الوحيدة للتفرق بين المضاف والمضاف اليه في العربية

المترافقية ، يتضح هذا في مثل قوله عن فلان : انه كريم ثم الاتباع ، مع فهو نجيب الولد ، غنى فقير العبار ! ونحن عند اعراب هذه الصفات ملزمون نحوياً بأن نقول : (الثيم) صفة (كريم) .. و (نجيب) صفة (معتوه) ... و (فقير) صفة (غنى) !.. خلافاً لبدويات المنطق ، وما كان مثل هذا التناقض الفادح ليقع لو أنتا جربينا على القاعدة العربية فقلنا : انه كريم ؛ ثباعه لئام ، معتوه ولده نجيب ، غنى جاره فقير .

والصفة في كلتا هاتين الحالتين تتجاهل فيما موصوفاتها الحقيقية – أى عند كونها خبراً لمالك موصوفها في الحالة الأولى أو صفة له في الحالة الثانية – تكون تابعة لمالك الموصوف هنا كـما قلنا في جميع حالاته ، كالمرأة – أيضاً – اذا هـى تركت زوجها وتعـلت برئـسه ، وعلى هذا يقال : هو (الرئيس مثلـاً) كثير المال ، وهـى (المديـرة مثلـاً) كثـيرة المال ... وهـما كثـيراً المال ، أو كثـيرـتاً المال ... وهم كثـيرـو المال .. وهـنـ كثـيرـات المال ، والمقصـور وصفـه في جميع هذه الحالـات السـتـ هو المال ، المـذـكرـ المـفردـ ، ولكنـ الصـفةـ (كثيرـ) تتجـاهـلهـ تمامـاً وـتـبعـ أـصـحـابـ المـالـ وـصـاحـبـاتـهـ فـتـغـيرـ لـبوـسـهاـ مـعـهمـ فيـ ستـ حـالـاتـ مـخـتـلـفةـ ، باـعـتـيـارـهـمـ مـعـ المـوـصـوفـينـ (نـحـوـيـاـ) وـاـنـ لـمـ تـكـنـ لـايـ وـاـحـدـ أـوـ وـاـحـدـ مـنـهـمـ عـلـاقـةـ بـصـفـةـ (الـكـثـرـةـ) هـذـهـ ، اـمـاـ المـالـ المـقـصـودـ وـصـفـهـ فيـ جـمـيعـ الـاحـوالـ فـهـوـ قـابـعـ فيـ مـكـانـهـ ، مـقـيدـ بـالـاضـافـةـ ، مـكـسـورـ الـخـاطـرـ ، اـعـنـىـ مـكـسـورـ الـآـخـرـ .

كلـ هـذـاـ جـاءـ مـنـ اـقـحـامـ قـاعـدةـ أـعـجـيـةـ فـيـ لـغـةـ عـرـبـةـ يـقـومـ كـيـانـهـ وـطـرـائـقـ تـرـكـيبـ الـكـلـامـ فـيـهـ عـلـىـ قـاعـدةـ مـعـاكـسـةـ ، فـالـصـفـةـ عـنـدـمـاـ قـدـمـتـ وـوـضـعـتـ فـيـ غـيرـ مـوـضـعـهـ التـقـليـدـيـ وـأـخـذـتـ لـمـ تـكـنـ جـاـيـهـاـ حـالـاتـ لـمـ تـأـلـفـهـاـ وـمـاـزـقـ لـمـ تـكـنـ تـعـرـضـ لـهـاـ عـنـدـمـاـ كـانـ مـلـحـقـةـ بـمـوـصـوفـهـ ، فـاضـطـرـتـ إـلـىـ تـحـوـيـرـ كـلـ قـاعـدةـ نـحـوـيـةـ تـقـفـ فـيـ طـرـيقـهـاـ وـسـعـقـ كـلـ ضـرـوـرـةـ مـنـطـقـةـ تـهـدـدـ وـجـودـهـاـ – دـفـاعـاـ عـنـ نـفـسـهـاـ عـلـىـ سـنـةـ الـبـقاـ .

وـاـنـ كـانـ قـولـ المـحـدـثـيـنـ الـيـوـمـ اـنـ (يـتـقدـمـ أـكـثـرـ فـاـكـشـرـ) وـ(يـدـبـرـ الـاـمـرـ بـشـكـلـ اوـ بـاـخـرـ) يـنـبـسـوـ عـنـ اـذـواقـهـ وـيـؤـذـىـ اـسـمـاعـ بـعـضـنـاـ كـماـ يـؤـذـنـاـ الـلـحـنـ فـيـ الـكـلـامـ مـنـ جـرـ منـصـوبـ اوـ رـفعـ مـجـرـورـ ، فـانـاـ هـىـ السـلـيـقـةـ ، أـىـ الـعـادـةـ الـلـغـوـيـةـ اـمـاـ نـاـشـيـةـ الـعـيـلـ الـذـيـنـ لـمـ تـتـعـودـ اـذـواقـهـ مـاـ يـخـالـفـ اـمـثـالـ هـذـهـ اـلـتـعـابـرـ الـمـسـتـحـدـثـةـ الـدـخـلـةـ وـلـمـ

طريقتهم في الإضافة ، بالضبط كما يكسرون آخر المضاف عند قولهم قصر سلطة ، كتاب لسلسة ، مدرسة وقص (3) أما في القاعدة الفارسية القديمة فلا يكسر آخر الصفة ولا آخر الموصوف وإنما يكون كلامها ساكنا ، مثل : بزركه مهر ، الذي ترجمت له كليلة ودمنة (بزركه = كبير ، مهر = الحبة أو المطاف) ، و (جوان بخت) ، أى سعيد الطالع (جوان = شاب فتى ، بخت = المظط) .

وقد نالت العربية من الفارسية في هذا الصدد أكثر مما نالته الفارسية منها لأن تبعة الصفة للموصوف ما زالت حتى اليوم هي القاعدة العامة في العربية يجوز إلى جانبها تقديم الصفة جوازا ، وقد استعملها العرب في بعض الحالات لا كلها ، حتى كاد الامر يكون سباعيا ، وكثيراً ما يبدو تابيا في غير التعبير المثلوثة التي استشهدنا ببنماذج منها ، فليس من المألوف مثلاً أن يقال عجوز امرأة ، أو شجاع جندي ، بمعنى امرأة عجوز وجندى شجاع كما نقول عتيق خمر وجزيل شكر ، بمعنى خمر عتيقة وشکر جزيل ، أما في الفارسية فقد أصبح الخروج على القاعدة القديمة هو القاعدة في صياغة الكلام الآن ، وأصبحت التعبير المصوحة وفق تلك القاعدة القديمة أشبه بالشواذ من المصطلحات السماوية تختلفت من رواسب العهد القديم ، لا يقاد عليها .

يقع عند احتكاك الشعوب بين اللغات من الأحداث والمقاربات والنكبات والحكايات ما يشبه في طرائفه وغرابته بعض الذي يقع بين البشر ، رأينا في هذا البحث اثارة من ذلك ، وأخر هذه الطرائف التي عرضت لنا هو هذا التبادل النادر المثال ، في نقطة بذاتها ، بين العربية وجارتها الفارسية ، الفارسية جعلت العربية تقدم الصفة على الموصوف خلافاً لقواعدها النحوية في الجامالية والعربوية جعلت الفارسية تقدم الموصوف على الصفة خلافاً لقواعدها النحوية أيضاً في الإسلام ...

عبد الحق فاضل

هي تقديم هذا على ذاك ، فإذا عكسنا الوضع انعكس المعنى في كليهما ، كما في مثل قولنا : حلوس البيت ، بدل بيت العارس ... وزوج المرأة ، بدل امرأة الزوج .. وكعبة الرب ، بدل رب الكعبة على حين أن تقديم الصفة على موصوفها - بالرغم من كل ما تقدم بنا ومن تغير عائديتها في الاعراب - لم يغير في ذهن السامع ما قصد إليه المتكلم من كلامه ، فلم تلتبس الصفة بالموصوف ، أعني لم تأخذ مكانه في الذهن ولو أنها أخذت مكانه في الاعراب .

ان شعراً وادباً ، يؤثرون على كل حال أن يستعملوا الصفات في زيهما الدخيل المفروضي هذا ، فهم حين يريدون التفاصح يتذكرون الطريقة الفارسية الأصولية القوية عزوفاً عن استواها وبساطتها وصحتها ، وحباً بما يقدم به الطريقة الأخرى من شذوذ وتمرد ولا معقولية يحسون بها احساساً غامضاً لا يفهون حقيقته ، مثلما يسهولونها في المحبوب بعض مفاتن غير المفاتن الوتيرية (الروتينية) في حركاته أو نبراته تفعل فعلها فيها ولا نكتنه سرعاً .

ومهما يكن فإن هذه البدعة بالرغم مما أحدثت من شغب وفوضى قد أثبتت ولا شك أن هذا سيكون مصير التعبير التي أتقنها متذubo اليوم في العربية وما سيقومون منها في المستقبل كما فعلوا في كل جيل ، فيزدرون أذواق الجيل السابق ويزيدون الثروة اللغوية للجيل اللاحق .

ومن الغريب حقاً أن اللغة العربية حين عادت فاثرت في الفارسية بعد الفتح الإسلامي وشملت تأثيرها الواسع العميق حتى بعض قواعد النحو والصرف ، كان من جملة ذلك أنها طعنتها في نفس المكان الذي تلقت طعنتها فيه من جسمها ، أعني أنها فرضت على الفارسية اتباع الطريقة العربية القديمة في تأثير الصفة على موصوفها ، والربط بينها بوثاق الإضافة أيضاً - كأنما أخذنا بالثار ، وكان من نتيجة ذلك أن صاحب الفرس يقولون اليوم : قصر أيضن كتاب مفيد ، مدرسة ابتدائي مع كسر آخر الموصوف ، على

(3) اخترنا هذه النماذج من الألفاظ العربية لكي يفهمها القارئ العربي ، فهي من المفردات العربية المستعملة في الفارسية ، ويلاحظ أن الإضافة في الفارسية تكون كما ذكرنا بكسر آخر المضاف - لا المضاف إليه كما في العربية.